جرفه التيار

تعشش الفاحشة في الشقة المواجهة لشقته.. تتراءى له ما يتمخض عنها.. تتمادى في محضره غير عابئة به.. متحدية في عناد وإصرار.. تنتفخ وتتمدد وتتجدد.. وتستمر دون توقف.. شغلت كل حواسّه.. سمعه حين يأتي إليه صوت ارتطام الباب بعد زيارة طويلة أو توديع.. يتخللها ضحكات وهمس هو - بالطبع - تجديد الوعد والموعد.. وبصره حين يرى من ثقب الباب شابًّا يافعًا يتدفق حيوية.. تتقدمه ربة الفاحشة.. شبه عارية.. وكل ما فيها ينطق بالفتنة، وبالذات ردفاها اللذان يتراقصان تحت ثوبها في إغراء وإثارة.. وخياله ذلك الذي يجوس داخل الشقة ليشهد مداعبات.. عناق وقبلات.. همسات وكلمات متكسرة.. دفء يسري، وحمى تندلع في الأعضاء.. لتتلوّى من فرط الرغبة.. وسرعان ما تلتحم وتتفاعل وتهتز.. فتكف عن الصراخ..

يرى الفتى.. يدخل نضرًا مشوقًا.. واثق الخطى كالفوارس.. ليخرج فأرًا منهوكًا مهزومًا كالح الوجه.. مهرولًا في ذعر.. يتوافد الكثير.. يحتسون لحظات المتعة لقاء رحيق الشباب.. أعواد خضراء تذبل وتهزل.. تتآكل وتهون لتسقط قبل الأوان.. وما تلبث أن تجف ويذروها النسيم.. ليتبدل الجمال قبحًا.. والجنة مرتعًا للهوام.

في البداية، رشقه أهل الشارع بنظرات العتاب القاسية.. لتتحول إلى غمزات ولمزات أشد قسوة.. وهم غير ملومين..

فقد فاحت الرائحة.. وهو التقي الورع.. واعظ المسجد.. وإمام المصلين.. ولا عذر لوقوفه مكتوف اليدين..

منذ البداية - أيضًا - وصراع يؤرقه.. يتعقبه نهاره وليله.. يتحاشى النظرات التي تحاصره في كل أوان.. أصعب من الكلام.. لقد رفض الزواج واهبًا نفسه لعبادة الله.. وعاكفًا على إرشاد غيره.. كيف يواصل والفاحشة تسكن بيته.. كيف يجدد عهد العبادة مع إله الكون؟ و.. كيف يواتيه النوم؟.. كم يخشى الله.. و.. وكم يرهب نفسه!!.. وغدا الصراع على أشده.. حين كان قلبه يدق بعنف على غير عادته!

قضى ذلك اليوم بلا كلام.. لم يقم بدرسه بعد صلاة العصر.. ولم يستمع إلى تساؤلات الناس واستفساراتهم في أمور الدين والدنيا.. فقد كان بين فكي امتحان صعب.. وكأن يدًا قوية تمسك بتلابيبه، وتضغط على عنقه.. وفور إتمام آخر الصلوات اختطف مداسه، وانطلق بين دهشة المحيطين وتبادلهم نظرات الاستغراب.. قاصدًا بيته تنتابه الوساوس.. ويطل من وجدانه إحساس غريب!.. صعد الدرج.. استوقفته ضحكتها.. لكأنها تسخر منه.. كاد يرفع يديه ليسد أذنيه.. ولكنه لم يصنع!.. الانفعالات تحتشد في صدره.. دلف شقته.. صدى الضحكات يملأ مسمعه.. امتعض.. اغتاظ.. تضاغطت أضراسه.. لم يذهب للنوم.. فاليوم أمر.. لا بد أن يدرأ المنكر بيده ولسانه وقلبه دفعة واحدة.. أيضًا، لم يجلس وجعل يخرج من حجرة ليدخل أخرى.. فقد اشتعل ذهنه، واتقدت حميته.. ملّ الصمت..

الرهبة ترجُّ كيانه.. كل شيء أمامه يدور مسرعًا ليقع.. ويتكسر.. يخطو إلى الباب الخارجي.. تصطك الضحكات بأذنيه.. أسواط تهري وجهه وظهره وقفاه..

- التجربة خطيرة.. والتصدي صعب.. صعب!

صرخات تنبعث من أعماقه.. في المرآة رأى شخصًا ينبض بالفتوة.. سوى بعض خطوط تحوط عينيه وشعيرات بيضاء تناثرت في رأسه ولحيته..

وهل يرهب الناسك مثل هذه المواقف؟!.. هل يرهب مواجهة المنكر وهمزات الشياطين؟.. لا لا لا.. ولِمَ أصابته الرهبة إذن؟!..

- لو أستطيع أن أفرّ من البيت.. والوعظ.. والناس أجمعين!..

ولكن، كيف يواجه نفسه.. بل كيف يهرب من عين الله؟.. الشيطان يرقص.. تتسع ابتسامته مشجعًا.. والعقل حائر، والقلب يرتعد.. التجربة مريرة إلى أبعد الحدود.. الصداع يفتك برأسه.. وبدا مترددًا.. مهزوزًا.. ضحكاتها وضحكات الشيطان يختلطان..

- ليت الأقدار أحالت دون سكناي في ذلك الشارع وهذا البيت.. ليتها أحجمت عن طريق الشيطان!!

سمع أصوات جلبة.. أعقبها همس.. مشى ناحية باب الشقة.. وقد ثلج قلبه.. فتح الباب في سرعة أقرب إلى

عدم الهروب من الخوض في التجربة نفسها.. طأطأ الشاب رأسه خجلًا.. عاد يتأمل عاهرته تلك التي حدجت الرجل بنظرة تحدٍّ.. وقبل أن تدخل وتدفع الباب في وجهه.. أشار إليها فتوقفت.. خطا نحوها حين تسلل الشاب.. ارتعشت شفته السفلى.. تنقل بصرها بين شفتيه ولحيته وعمامته.. وعلى شكله العام.. ابتسمت.. تصبب منه العرق.. قال أخيرًا:

- لو.. لو تسمح الهانم ببضع دقائق لأمر مهم.

صمتت المرأة لحظات، بينما ارتفع حاجباها.. ثم تفوهت.. سمع صوتها كأنه يأتي من مكان قصي:

- تفضل..

تفضل!!.. أتقصد أن يدخل؟!.. لم تدع له فرصة.. فقد دخلت.. لم يجد إلا أن يتبعها.. نقل قدمه بصعوبة، وقد غاص قلبه في أحشائه.. وأشرف على البكاء.. هاجمت أنفه رائحة غريبة.. لم تكن كريهة.. كاد يأخذ شهيقًا عميقًا.. تلفت يمنة ويسرة.. اللون الأحمر يفترش الأثاث.. اصطدمت عيناه بردفيها اللذين يتراقصان تحت ثوبها.. انتقلتْ إلى ما بان من فخذيها.. ثم إلى سمانتيها البضّتين.. نظر إلى الجدران.. كلها صماء بلا ثغر على الخارج.. الرائحة تأتي رغم أنفه.. لا بد أن يتنفس.. وعيناه لا بد أن تقع على ذلك المشهد.. واللون الأحمر يشده وكأنه ينوي ابتلاعه.. دمه يغلي.. الماضي يتبخر

من ذاكرته.. غطى لحيته بيده.. لعله يبعدها عن عينيها.. أو لعله يتعلق بها خشية الانزلاق.. فهي رمز ماضيه القريب.. الباب مغلق.. لا هروب.. الشيطان يرقص من حوله، ويضحك بأعلى صوته.. شيء يحركه خلفها.. أشارت له بالجلوس.. يدها تشير إلى الفراش.. جلس دون اعتراض.. جعل يتفرس في خصلات شعرها المتهدِّلة على وجهها وكتفيها.. وعينيها اللتين تشعان سحرًا.. جيدها وخصرها وصدرها.. وعودها.. أخفى رأسه.. رنَّت ضحكتها الساخرة.. رفع وجهه ليراها والشيطان.. نظر إلى باب الحجرة المفتوح في ذلة.. لم يحرِّك ساكنًا!!

جلست بجواره.. التصقت به.. لفحته حرارتها.. وقعت عيناه على شفتيها المكتنزتين.. كأنهما ثمرتان.. وهذه ثمرة أخرى.. وتلك ثمار كثيرة.. كأنها شجرة ثمار.. ساحرة اللون، فما بالك بالطعم! نسي الناس.. نظراتِهم وغمزاتهم ولمزاتهم.. نسي الماضي.. ملأ أنفه بالرائحة الغريبة.. عبَّ منها..

- لا ضير من بعض اللحظات أتنسم فيها تلك الرائحة.. لحظات لقاء عبادة سنين.

سرق وجوده ونفسه إلى عالم آخر.. عالم ساحر وعندئذ لا لوم عليه.. أَوَ يحاسَب مَن أحاطه السحر من كل فج؟

المصلون هناك في المسجد ينتظرون.. فقد أُذِّن لصلاة الفجر.. ولم يأت! إنها أول مرة منذ أن داست قدماه أرض

الحي! انتظروا طويلًا.. وقبل أن ينبلج الصباح أمَّ الناسَ أحدُهم.. وبعد الصلاة انتشروا.. تهاجمهم عاصفة مترية تلسع صفحات وجوههم .. تحمل رائحة مميزة لا تعشقها مثل هذه الأنوف.